هوامش

مثّل انتقال إسكندر صفا، في سنوات حياته الأخيرة، من عالم تجارة السلاح إلى إدارة مجلّة يمينية متطرّفة ما هو أشبه بـ«تتويج» لمساره، وهو الذي لم يُرِد يوماً أن يمارس السياسة تحت الأضواء، بل في الظلّ

إسكندر صفا (يسارا) مع الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا هولاند (تشارلي تريبالو / فرانس برس)

إسكندر صفا

بين تجارة السلاح وإعلام اليمين المتطرّف

باريس ـ **العربي الجديد**

في واحدة من أولى زياراته هذا العام لرمز من رموز الصناعة الحربية الفرنسية، اختار الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون شركة الإنشاءات الميكانيكية النورماندية التي يرأسها رجل الأعمال اللبناني الفرنسي، إسكندر صفا، والواقعة في ميناء مدينة شيربور. لم يكن إسكندر صفا حاضراً خلال تلك الزيارة التي اطّلع فيها ماكرون على تصنيع موظّفي الشركة لفرقاطة لحساب إمارة أبوظبي، وزورق إنزال لحساب دولة أنغولا. ويأتي رحيل صفا متأثّراً بالمرض، بعد عشرة أيام من زيارة ماكرون، ليشرح غيابه عن حدث كهذا لم يكن ليفوّته لو كان في كامل قواه، وهو الذي سبق له أن استقبل ورافق، خلال مسيرته، العديد من الرؤساء والشخصيات السياسية، كما فعل، على سبيل المثال، مع الرئيس الفرنسي السابق فرنسوا هولاند، والرئيس الموزمبيقي السابق أرماندو غيبوزا، اللذين زارا شركته هذه عام 2013.

لكنّ الرجل الذي رحل الاثنين الماضي لم يكن معروفاً، لدى الجمهور الواسع، بوصفه واحداً من أبرز الفاعلين في مجال تجارة التسليح حول العالم، بل بوصفه الملياردير الذي اشترى، قبل أعوام، مجلّة فالور أكتويل، إحدى أكثر المنشورات الفرنسية تطرّفاً وتعبيراً عن الأفكار العنصرية التي يحملها اليمين المتطرّف الفرنسي وشخصياته، مثل مارين لوبين وإريك زمور. تخبرنا السردية الرسمية، التي بثّها صفا ومقرّبوه في الإعلام خلال المقابلات القليلة التي أجروها في السنوات الماضية، أن قراره شراء المجلّة، عام 2015، كان يهدف إلى «تنويع» المجالات التي يعمل فيها. سردية يصعب تصديقها، في الواقع، نظراً إلى ما في الاستثمار في الإعلام من خسائر اقتصادية، أو مرابح لا تُذكَر في أحسن الأحوال، مقارنةً بالعقود الضخمة التي توقّعها شركات الرجل لتصنيع سفن وقوارب عسكرية وسياحية بمئات الملايين. ونظراً، أيضاً، إلى أن رغبة صفا في استخدام هذه المنصّة الإعلامية لمصلحته لم تتأخّر في الظهور إلى العلن، إذ نشرت الأسبوعية المتطرّفة العديد من الملفّات والمقالات المدائحية في حقّ عدد من زبائن شركاته، كما فعلت عام 2017 حين خصّصت واحدة من صفحاتها الأولى لأنغولا وعدد من سياسييها، وذلك بعد أشهر قليلة فقط من توقيع البلد الأفريقي عقداً بقيمة تناهز 500 مليون يورو مع شركة الإنشاءات الميكانيكية النورماندية لتصنيع 17 سفينة حربية.

على أن التناغم بين آراء الملياردير الراحل الذي قدّرت مجلة تشالينج الفرنسية ثروته، عام 2023، بـ 1,45 مليار دولار، وآراء المجلّة، يقودنا أبعد من هذه «الخدمة» التي قدّمها إلى بعض زبائنه. مثلاً، حين تصف «فالور أكتويل» حركة حماس وكتائب القسّام بـ«مجانين بالله» (عدد 12 أكتوبر/تشرين الأول 2023)، وحين تنتقد المقاومة الفلسطينية، فإنها تذكّرنا، على نحو ما، بقناعات صفا، الذي كان في بداية الحرب الأهلية اللبنانية محارباً في صفوف مليشيا «حرّاس الأرز» المتطرّفة، التي شاركت في ارتكاب مجزرة تل الزعتر بحق اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. ومن المحتمَل أن يكون صفا من الذين شاركوا في المجزرة، إذ يقول صديقه وعضو مجلس إدارة «فالور أكتويل»، الصحافي شارل فيلنوف، في تقرير نشره موقع نيس ماتان، الخميس، إنه تعرّف إلى صفا «منذ 1975 ومعركة تل الزعتر في لبنان»، التي ذهب فيلنوف لتغطيتها لصالح إذاعة أوروبا 1 الفرنسية.

ولن تكون واقعةً كهذه بالأمر المفاجئ، فالرجل، المولود عام 1955 في قرية غدير، شماليّ لبنان، لم يُبدِ في يوم ما تحفّظاً تجاه الكيان الاستعماري، بل على العكس، تعاون معه في عديدٍ من محطّات حياته. إذ سبق لصفا أن التقى عميلاً للموساد، عام 1989، في باريس، طلب منه التدخّل للعثور على الطيّار الإسرائيلي رون أراد الذي كانت طائرته الحربية قد سقطت عام 1986 في صيدا، جنوبيّ لبنان، خلال غارة إسرائيلية على منظمة التحرير الفلسطينية. واقعةً أوردها أولاً الصحافي الفرنسي روجيه أوك، وعاد وأكّدها، عام 2016، منسّق شؤون أعمال الاحتلال الإسرائيلي في لبنان خلال الثمانينيات، أوري لوبراني، في حديث مع صحيفة يديعوت أحرونوت. مع العِلم أن صفا كان قد تدخّل قبل عام من ذلك، أيضاً، لإخراج الصحافي الفرنسي نفسه من الأسر في لبنان، ضمن ما عُرف حينها بـ«أزمة الرهائن».

ويبدو أن تلك اللقاءات لم تكن إلا بداية العلاقة مع دولة الاحتلال التي عاد رجل الأعمال اللبناني وقدّم لها الخدمات من باب شركة أبوظبي مار، التي كان يملك 30 في المائة من أسهمها. قامت الشركة، عام 2016، بتصنيع سفن حربية للجيش الإسرائيلي، ضمن صفة أوسع عقدتها حكومة الاحتلال حينها مع شركة ألمانية قابضة، هي «تيسن غروب».

هكذا، يصبح انتقال إسكندر صفا، في سنوات حياته الأخيرة، من عالم تجارة السلاح إلى إدارة مجلّة يمينية متطرّفة أشبه بـ«تتويج» لمساره، هو الذي لم يُرِد يوماً أن يمارس السياسة تحت الأضواء، بل في الظلّ، مستخدماً أدوات غير تلك التي يستخدمها السياسيون.

باختصار

تخبرنا السردية الرسمية، التي بثّها صفا ومقرّبوه، أن قراره شراء المجلّة، عام 2015، كان يهدف إلى «تنويع» المجالات التي يعمل فيها

■■■

كان في بداية الحرب الأهلية اللبنانية محارباً في صفوف مليشيا «حرّاس الأرز» المتطرّفة، التي شاركت في ارتكاب مجزرة تل الزعتر

■■■

الرجل المولود في قرية غدير اللبنانية، لم يُبدِ في يوم ما تحفّظاً تجاه الاحتلال، بل على العكس، تعاون معه في عديدٍ من محطّات حياته

وأخيراً

جنازات في سوق رفح

سما حسن

أمام إلحاح السيدة البدينة الطيبة التي استأجرتُ غرفة في بيتها الواسع الجميل، الملحق بحديقة وارفة، قبلتُ أن أشقّ غمار سوق قريبٍ مستحدثٍ في مدينة رفح، ويعرف بسوق «الطيارة». وقد أطلق عليه هذا الاسم ليسهل الوصول إليه والتعريف به، حيث يمتدّ من مفترقٍ يعلوه مجسّم لطائرة ويصل إلى حدود مدينة خانيونس بمحاذاة ساحل البحر.

ولأنني لستُ من محبّي ارتياد الأسواق، فكيف في حال الحرب، ولكن إلحاح الرفيقة أغراني باستغلال ساعات تعليق القصف الأربع اليومية، والتي تبدأ في العاشرة صباحاً. وهكذا كانت قدماي تغوصان بمياه الصرف الصحي فيما يتدافع المارة أكتافي وتزكم أنفي روائح كريهة لا توصف، ولكن عنوانها البؤس والفقر. تكتشف في سوق «الطيارة» أن العنوان الرئيسي لهذه اللوحة القاتمة ينقسم إلى عناوين فرعية فتختار لأحدها مثلاً مسمّى «موت وحياة»، فبمجرد أن سرتُ عدة أمتار، مرّت جنازة صغيرة لا يمكن أن تستنتج من مشهدها شيئاً، فلا امرأة تنتحب مثلاً، ولا دموع عالقة، فهناك شخص ما قد قُتل ولفّ بكفن أسود وحمله أربعة رجال فوق أكتافهم وهم يهتفون، فيما يتبعهم رجال لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. كان من الطبيعي في الأيام العادية أن يترك كل بائع بضاعته ويتبع الجنازة، فيما يغيّر المارّة مسارهم ليتبعوها، وتفعل ذلك السيارات والدرّاجات الهوائية. ولكن اليوم ومع تصاعد الأنباء عن ضراوة المعارك في غرب مدينة خانيونس فيمكنك أن تستنتج على عجل وتُكمل سيرك أن الشخص المحمول على الأكتاف قد سقط في محيط المشفى الرئيسي في المدينة، وقد لفّ بكفن قميء اللون من الجلد، وأن من حملوه يلهثون ويرتعدون من احتمالات الموت الكثيرة التي أفلتوا منها حتى قاربوا الوصول إلى إحدى المقابر الجماعية في رفح، مدينة النزوح الكبير.

ولكن اليوم، وأمام هذا المشهد، لم يحرّك أحدُهم ساكناً، فالجميع مشغولٌ بما يُعرض من بضائع مزجاة، ويحاول التخلّص منها والعودة سريعاً إلى الخيمة قبل أن تلحق به الأمطار أو الطائرات، وقد واصلتُ سيري فعلاً للسببين، وبعد أن قرأت في سرّي آيات قرآنية قصيرة بحسب ما تعوّدنا منذ صغرنا أن نفعل حين تمرّ بنا جنازة، وما إن واصلت سيري وأنا أنقل نظري على الجانبين الضيّقين من السوق، وأكتشف أن البضائع متشابهة، فكلّها لوازم غذائية وصلت على شكل مساعدات ويتم بيعها للحصول على مستلزمات أخرى، ولا ضير في أن يبيع أبٌ حليب الأطفال المجفّف للحصول على علبة من الدخان، فهو يقوى على تحمّل الجوع ومشهد أطفاله الهزالى، ولكنه لا يقوى على أعراض انسحاب النيكوتين من دمه.

ولذلك، ما إن واصلت سيري حتى رأيت امرأة منتحبة تجلس على حافة الرصيف وبين ذراعيها طفل ميّت بوجه غارق بالدماء، ولم أكن في حاجة لكي أستنتج أنها فرّت به على هذا النحو من المخيّم، وكانت تنادي باسم شخص ما، فيما يربت شخص آخر على كتفها محاولاً تهدئتها ويعدها بأن الشخص الغائب سيعود، ويبدو أنه الأب الذي سيأتي ليدفن طفله، ولك أن تطلق خيالك لكي تتصوّر أنه ما زال يحاول إنقاذ بقية الأطفال. والغريب أيضاً أن هذا المشهد لم يستوقف أحداً، ولكني توقّفت قليلاً وقلبي يتقطّع، وحاولت أن أنحني لكي أربت على كتف الأم، ولكن جارتي جذبتني بقوّة من ذراعي وهي تنبّهني بأن علينا إكمال جولتنا علّنا نحصل على بعض المستلزمات بسعر أقلّ لو أوغلنا قليلاً في الشارع الضّيق الطويل، وقبل أن يباغتنا مطر أو قصف في الجوار المحيط.

> أصبحت المشاهد التي كانت تهزّنا وتقلب نظام يومنا وتغيّر جدوله ونمطه عادية نمرّ عليها من باب الاعتياد

هكذا كنتُ أمضي وأنا أشعر بوجع لا يوصف، لأننا وصلنا إلى هذه المرحلة، أن الخوف والحرص على ما تبقّى من الحياة قد جرّدنا من الإنسانية وتعاطف بعضنا مع بعض، وأصبحت المشاهد التي كانت تهزّنا وتقلب نظام يومنا وتغيّر جدوله ونمطه عادية نمرّ عليها من باب الاعتياد، ونتأقلم مع تكرارها مثلما تأقلمنا مع كل هذا البؤس الذي نعيشه.

عدتُ مع جارتي الطيّبة البدينة، ولم أغفل أن ألقي نظرة على الخيمة القريبة، وكانت الزوجة الشقراء التي يبدو أنها سليلة حسب ونسب تساعد زوجها في إشعال النار أمام الخيمة، وكنت أراها قبل أيام تقف على بعد منه مكتوفة اليدين، وتُلقي نحوه نظرات متأفّفة سرعان ما تبدّلت مثلما تبدّلت مشاعر الجميع نحو جنازات عابرة في السوق.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**